9 – معركة بدر:

واصل الرسول ﷺ سياسته القائمة على ممارسة الضغط على حرية قريش في إرسال قوافلها التجارية إلى بلاد الشام من خلال محاولة التعرض لها بالاستيلاء عليها، لذا فإنه بدأ يترقب موعد عودة قافلة قريش التي كانت ذاهبة إلى الشام حينما خرج في غزوة العشيرة للتعرض لها.

ويبدو أن حرص الرسول ﷺ على مهاجمة هذه القافلة التي كان يقودها أبو سفيان نابعة من أنها كانت من أكبر قوافل قريش التجارية، فكانت تضم "ألف بعير، وكانت فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدًا، إلا بعث به في العير، حتى أن المرأة لتبعث بالشيء التافه، فكان يقال أن فيها لخمسين ألف دينار"[4].

إن نجاح المسلمين في الاستيلاء على هذه القافلة كان من شأنه أن يلحق ضربة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوية بقريش ويعوض المهاجرين عن أموالهم التي صادرتها ويساعد على تحسين أوضاعهم الاقتصادية بصورة واضحة، لذا فما كادت الأخبار تصل إلى الرسول ﷺ بأن القافلة قد توجهت من بلاد الشام في طريق عودتها إلى مكة حتى سارع إلى حث المسلمين للخروج لمهاجمتها فقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم، وثقل بعضهم"[1].

وقد أشارت المصادر إلى أن العامل الذي جعل بعض الصحابة يتثاقلون عن تلبية نداء الرسول ﷺ للمساهمة في هذه الغزوة أنهم "لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا"[2]، وبخاصة وأن القافلة لم تكن تتمتع بحراسة قوية إذ كان يصحبها "ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون"[3]. ومن ثم فإن عملية الاستيلاء عليها ستكون سهلة للغاية.

غير أن هناك من الأدلة ما يوحي بأنه كان من جملة من تثاقلوا عن الخروج أناس لم يقتنعوا بجدوى هذه الغزوة أو أنهم خشوا من العواقب التي ستترتب عليها.. يقول الواقدي "وأبطأ عن النبي ﷺ بشر كثير من أصحابه، كرهوا خروجه وكان فيه كلام كثير واختلاف". وإن مما يؤكد ما ذكره الواقدي ما سجله القرآن عن موقف بعض المسلمين قبل معركة بدر بقوله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝ ﴾[4].

وعلى الرغم من كل ما تقدم، فقد كان عدد الذين لبوا نداء الرسول ﷺ للخروج من المهاجرين والأنصار كبيرًا إذا قيس بعدد الذين ساهموا في السرايا والغزوات السابقة، إذ بلغ عددهم كما يذكر ابن إسحاق "ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن الأوس واحد وستون رجلاً، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً"[5]. ويبدو أن حرص الرسول ﷺ على وحدة جيشه، وعدم وجود مترددين ومخذلين بينهم، وبخاصة إذا تطور الموقف من مجرد الاستيلاء على القافلة إلى الحرب، جعله يرفض السماح بمشاركة غير المسلمين في هذه الحملة. لذا فقد ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ رد رجلين من مشركي المدينة خرجا معه من أجل الغنيمة قائلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهم: "لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا"[1].

لقد كان يوم خروج الرسول ﷺ في هذه الغزوة، هو يوم الاثنين، لثمان ليال من شهر رمضان، وكان قد مر على هجرته إلى المدينة تسعة عشر شهراً[2]، فسلك طريقه من المدينة إلى مكة يريد بدرًا، وهو موضع ماء، كانت تعقد عنده بعض المواسم التجارية. ويبعد عن المدينة بحوالي مائة وستين كيلو متراً[3].

ويبدو أن المسلمين توقعوا أن يلقوا قافلة أبي سفيان عند بدر غير أن أبا سفيان كان شديد الحذر، إذ كان يتوقع خروج المسلمين للتعرض لقافلته، ومن ثم أخذ يستطلع أخبارهم حتى إذا تأكد من الخطر الذي يحيق بالقافلة سارع إلى تغيير طريق سيره باتجاه الساحل وبذلك فوت على المسلمين فرصة الاستيلاء على القافلة، ثم قام بإرسال شخص من قبيلة غفار إلى مكة ليستنفر قريشًا لنجدة أموالها[4].

وحين بلغت قريش أخبار تعرض قافلتها للخطر هبت لنجدتها، وقالوا: " أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، أما خارج وأما باعث مكانه رجلاً، واوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد"[5]. غير أن حماس بعض زعماء قريش للقتال فتر حينما وصلتهم رسالة من أبي سفيان تخبرهم بأن القافلة قد نجت، ولم يعد ثمة حاجة لنجدتهم[6]، في الوقت الذي أصر فيه آخرون على القتال، وكان أشدهم حماسًا أبو جهل بن هشام الذي قال: " والله لا نرجع حتى نرد بدرًا. ونقيم عليه ثلاثًا، فنخر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا وجمعنا. فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها"[7].

وهكذا فقد دب الانقسام في صفوف جيش المشركين فانسحب من بينهم بنو زهرة وبنو عدي، وساهم بنو هاشم وهم مكرهون[8]. كما أن بعض قادة المشركين من أمثال عتبة بن ربيعة من بني عبد شمس وحكيم بن حزام من بني أسد قد ساروا إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القتال وهم غير راغبين فيه مجاراة لأبي جهل[1]. ومع ذلك فقد بلغ عدد أفراد جيش المشركين الذين توجهوا لقتال المسلمين حوالي تسعمائة وخمسين رجلا[2]، أي ثلاثة أضعاف عدد أفراد جيش المسلمين.

حين بلغت أخبار تحرك جيش المشركين لمقاتلة المسلمين الرسول ﷺ وجد أنه لم يعد أمامه من خيار سوى الصمود والاستعداد لخوض المعركة الفاصلة مع مشركي مكة. ومع ذلك فقد جمع الناس الذين معه لاستشارتهم فيما يفعل لمواجهة الموقف فتحدث أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو فأبدوا حماسهم لمقاتلة المشركين. غير أن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الأنصار ويقول "أشيروا أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وإنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا يا رسول الله: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمتعك مما نمتع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وإن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد"[3].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner